

ألف ليلة وليلة

حكاية هارون الرشيد مع محمد علي الجوهري

حكاية هارون الرشيد مع محمد علي الجوهري

و مما يحكى أن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي قلقاً شديداً فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي وقال له: صدري ضيق ومرادي في هذه الليلة أن أتفرج في شوارع بغداد وأنظر في مصالح العباد بشرط أننا ننزياً بزي التجار حتى لا يعرفنا أحد من الناس، فقال له الوزير: سمعاً وطاعة. ثم قاموا في الوقت والساعة ونزعوا ما عليهم من ثياب الافتخار ولبسوا ثياب التجار وكانوا ثلاثة: الخليفة وجعفر ومسرور السيف وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدخلة فرأوا شيخاً قاعداً في زورق فتقدموا إليه وسلموا عليه وقالوا له: يا شيخ إنا نشتهي من فضلك وإحسانك أن تفرجنا في مركبك هذا وخذ هذا الدينار في أجرتك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السابعة والعشرين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن أنهم قالوا للشيخ: إنا نشتهي أن تفرجنا في مركبك وخذ هذا الدينار، قال لهم: من ذا الذي يقدر على الفرجة والخليفة هارون الرشيد ينزل في كل ليلة بحر الدجلة في زورق صغير ومعه مناد ينادي ويقول: يا معشر الناس كافة من كبير وصغير وخأ و عام وصبي و غلام كل من نزل في مركب وشق الدجلة ضربت عنقه أو شققته على صاري مركبه وكأنكم به في هذه الساعة وزورقه مقبل، فقال الخليفة وجعفر: يا شيخ خذ هذين الدينارين وادخل بنا قبة من هذه القباب إلى أن يروح زورق الخليفة، فقال لهم الشيخ: هاتوا الذهب والتوكل على الله تعالى، فأخذ الذهب وعم بهم قليلاً وإذا بالزورق قد أقبل من كبد الدجلة وفيه الشموع والمشاعل مضيئة، فقال لهم الشيخ: أما قلت لكم أن الخليفة يشق في كل ليلة، ثم إن الشيخ صار يقول: يا ستار لا تكشف الأستار ودخل بهم في قبة ووضع عليهم منزر أسود وصاروا يتفرجون من تحت المنزر فرأوا في مقدم الزورق رجلاً بيده مشعل من الذهب الأحمر وهو يشعل فيه بالعود القافلي وعلى ذلك الرجل قباء من الأطلس الأحمر وعلى كتفه مزركش أصفر وإلى رأسه شاش موصل على كتفه الآخر محلاة من الحرير الأخضر ملانة بالعود القافلي يوقد منها المشعل عوضاً عن الحطب ورأوا رجلاً آخر في الزورق لابساً مثلاً لبسه وبيده مشعل مثل المشعل الذي معه ورأوا في الزورق مائتي مملوك واقفين يميناً ويساراً ووجد كرسياً من الذهب الأحمر منصوباً وعليه شاب حسن جالس كالقمر وعليه خلعة سوداء بطراز من الذهب الأصفر وبين يديه انسان كأنه الوزير جعفر وعلى رأسه خادم واقف كأنه مسرور وبيده سيف مشهور ورأوا عشرين نديماً.

فلما رأى الخليفة ذلك قال: يا جعفر. قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: لعل هذا واحد من أولادي إما المأمون وإما الأمين، ثم تأمل الشاب وهو جالس على الكرسي فرأه كامل الحسن والجمال والقدر والإعتدال، فلما تأمله التفت إلى الوزير وقال: يا وزير قال: لبيك قال: والله إن هذا الجالس لم يترك شيئاً من سكل الخلافة والذي بين يديه كأنك أنت يا جعفر والخادم الذي وقف على رأسه كأنه مسرور وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائي وقد حار عقلي في هذا الأمر. فقالت لها أختها دنيا زاد: ما أحسن حديثك وأطيبه وأحلاه وأعذبه فقالت: وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع حديثها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثامنة والعشرين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الخليفة لما رأى هذا الأمير تحير في عقله وقال: والله إني تعجبت من هذا الأمر يا جعفر، فقال له جعفر: وأنا والله يا أمير المؤمنين، ثم ذهب الزورق حتى غاب عن العين، فعند ذلك خرج الشيخ بزورقه وقال: الحمد لله على السلامة حيث لم يصادفنا أحد فقال الخليفة: يا شيخ وهل الخليفة في كل ليلة ينزل دجلة؟ قال: نعم يا سيدي وله على هذه الحالة سنة كاملة. فقال الخليفة: يا شيخ نشتهي من فضلك أن تقف لنا هنا الليلة القابلة ونحن نعطيك خمسة دنائير ذهباً فإننا قوم غرباء وقصدنا النزهة ونحن نازلون في الفندق فقال له الشيخ: حباً وكرامة، ثم إن الخليفة وجعفر ومسروراً توجهوا من عند الشيخ إلى القصر وقلعوا ما كان عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك وجلس كل واحد في مرتبته ودخل الأمراء والوزراء والحجاب والبواب وانعقد المجلس بالناس، فلما انقضى المجلس وتفرقت أجناس الناس وذهب كل واحد إلى حال سبيله قال الخليفة هارون رشيد: يا جعفر رهنض بنا للفرجة على الخليفة الثاني، فضحك جعفر ومسرور ولبسوا لبس التجار وخرجوا يشقون وهم في غاية الإنشراح وكان خروجهم من باب السر. فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الزورق قاعداً لهم في الإنتظار فنزلوا عنده في المركب فما استقر بهم الجلوس مع الشيخ ساعة حتى جاء زورق الخليفة الثاني وأقبل عليهم فالتفتوا إليه وأمعنوا فيه النظر فوجدوا فيه مائتي مملوك غير المماليك الأول والمشاعلية ينادون على عادتهم، فقال الخليفة: يا وزير هذا شيء لو سمعت به ما كنت أصدقه ولكنني رأيت ذلك عياناً، ثم إن الخليفة قال لصاحب الزورق الذي هم فيه: خذ يا شيخ هذه العشرة دنائير وسر بنا في محادثاتهم فإنهم في النور ونحن في الظلام فننظرهم وننفرج عليهم

وهم لا ينظروننا، فأخذ الشيخ العشرة دنانير ومشى بزورقه في محاذاتهم وساروا في ظلام زورقهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة التاسعة والعشرين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الخليفة هارون الرشيد قال للشيخ: خذ هذه العشرة دنانير ومر بنا في محاذاتهم فقال: سمعاً وطاعة، ثم أخذ الدنانير وسار بهم وما زالوا سائرين في ظلام الزورق إلى البساتين فلما وصلوا إلى البستان رأوا زريبة، فرسي عليها الزورق وإذا بغلمان واقفين ومعهم بغلة مسرجة بلجمة فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة وسار بين الندماء وصاحت المشاعلية واشتغلت الحاشية بشأن الخليفة الثاني هارون الرشيد هو وجعفر ومسرور إلى البر وشقوا بين الممالك وساروا قدامهم فلاحت من المشاعلية التفاتة فرأوا ثلاثة أشخاً لبسهم لباس تجار وهم غرباء الديار فأنكروا عليهم وغمزوا وأحضرهم بين يدي الخليفة الثاني، فلما نظرهم قال لهم: كيف وصلتكم إلى هذا المكان وما الذي أتى بكم في هذا الوقت؟ قالوا: يا مولانا نحن قوم من التجار غرباء الديار وقدمنا في هذا اليوم وخرجنا نتمشى الليلة وإذا بكم قد أقبلتم فجاء هؤلاء وقبضوا علينا وأوقفونا بين يديك وهذا خبرنا. فقال الخليفة الثاني: لا بأس عليكم لأنكم قوم غرباء ولو كنتم من بغداد لضربت أعناقكم، ثم التفت إلى وزيره وقال: خذ هؤلاء صحبتك فإنهم ضيوفنا في هذه الليلة فقال: سمعاً وطاعة لك يا مولانا، ثم ساروا معه إلى أن وصلوا إلى قصر عال عظيم الشأن محكم البنيان ما حواه سلطان قام من التراب وتعلق بأكتاف السحاب وبابه من خشب الصاج مرصع بالذهب الوهاج يصل منه الداخل إلى إيوان بفسقية وشاذروان وبسط ومخدات من الديباج ونمارق وطاولات، وهناك ستر مسبول وفرش يذهل العقول ويعجز من يقول وعلى الباب مكتوب هذان البيتان:

قصر عليه تحية وسلام
فيه العجائب والغرائب نوعت
خلعت عليه جمالها الأيام
فتحيرت في فنها الأقلام

ثم دخل الخليفة الثاني والجماعة صحبته إلى أن جلس على كرسي مذهب مرصع بالجواهر وعلى الكرسي سجادة من الحرير الأصفر وقد جلست الندماء ووقف سيف النعمة بين يديه فمدوا السماط وأكلوا ورفعوا الأواني وغسلت الأيدي وأحضروا آلة المدام واصطفت القناني والكاسات ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد فامتنع من الشراب فقال الخليفة الثاني لجعفر: ما بال صاحبك لا يشرب؟ فقال: يا مولاي إن له مدة ما شرب من هذا. فقال الخليفة الثاني: عندي مشروب غير هذا يصلح لصاحبك وهو شراب التفاح ثم امر به فأحضره في الحال فتقدم الخليفة الثاني بين يدي هارون الرشيد وقال له: كلما وصل إليك الدور فأشرب من هذا الشراب وما زالوا في انشراح وتعاطي أقداح الراح إلى أن تمكن الشراب من رؤوسهم واستولى على عقوله. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثلاثين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الخليفة الثاني هو وجلساؤه ما زالوا يشربون حتى تمكن الشراب من رؤوسهم واستولى على عقولهم فقال الخليفة هارون الرشيد لوزيره جعفر: والله ما عندنا آنية مثل هذه الآنية فيا ليت شعري ما شأن هذا الشاب فبينما هما يتحدثان سراً إذ لاحت من الشاب التفاتة فوجد الوزير يتساور مع الخليفة فقال: إن المساورة عريضة فقال الوزير: ما ثم عريضة إلا رفيقي هذا يقول: إني سافرت إلى غالب البلاد ونادمت أكابر الملوك وعاشرت الأجناد فما رأيت أحسن من هذا النظام ولا أبهج من هذه الليلة غير أن أهل بغداد يقولون: الشراب بلا سماع ربما أورت الصداع. فلما سمع الخليفة الثاني ذلك تبسم وانشرح وكان بيده قضيب فضرب به على مدوره وإذا بباب فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيّاً من العاج مصفحاً بالذهب الوهاج وخلفه جارية بارعة في الحسن والجمال والبهاء والكمال فنصب الخادم الكرسي وجلست عليه الجارية وهي كالشمس الضاحية في السماء الصافية وبيدها عود عمل صناع الهنود فوضعت في حجرها وانحنى عليه انحناء الوالدة على ولدها وغنت عليه بعد أن أطربت وقلبت أربعاً وعشرين طريقة حتى أذهلت العقول ثم عادت إلى طريقها الأولى وأطربت بالنعيمات وأنشدت هذه الأبيات:

لسان الهوى في مهجتي لك ناطق
ولي شاهد من حر قلب معذب
وخبر عني أنني لك عاشق
وطرف قريح والدموع سوابق
وما كنت أدري حبك ما الهوى
ولكن قضاء الله في الخلق سابق

فلما سمع الخليفة الثاني هذا الشعر من الجارية صرخ صرخة عظيمة وشق البدلة التي كانت عليه من الذيل وأسبلت عليه الستارة وأتوه ببدة غيرها أحسن منها فلبسها ثم جلس على عادته فلما وصل إليه القدر ضرب

بالقضيبي على المدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيًا من الذهب وخلفه الجارية الثانية أحسن من الأولى فجلست على ذلك الكرسي وبيدها عود يكمد قلب الحسود فغنت عليه هذين البيتين:

كيف اصطباري ونار الشوق في كبدي والدمع من مقلتي طوفانه أبدي
 والله ما طاب لي عيش أسر به فكيف يفرح قلب حشوه كمدي

فلما سمع الشاب هذا الشعر صرخ صرخة عظيمة وشق ما عليه من الثياب إلى الذيل وانسبلت عليه الستارة وأتوه ببذلة أخرى فلبسها واستوى جالساً إلى حالته الأولى وانبسط في الكلام فلما وصل القدح إليه ضرب على المدورة فخرج خادم وراءه جارية أحسن من التي قبلها ومعه كرسي فجلست الجارية على الكرسي وبيدها عود فغنت عليه هذه الأبيات:

أقصروا الهجر أو أفلوا جفاكم ففوادي وحقكم ما سلاكم
 وارحموا مدنفًا كئيبًا حزينا ذا غرام متيمًا في هواكم
 قد برته السقام من فرط وجد فتمنى من الإله رضاكم
 يا بدوراً محلها في فوادي كيف أختار في الأنام سواكم

فلما سمع الشاب هذه الأبيات صرخ صرخة عظيمة وشق ما عليه من الثياب فأرخوا عليه الستارة وأتوه بثياب غيرها ثم عاد إلى حالته مع ندمانه ودارت الأقداح فلما وصل القدح إليه ضرب على المدورة فانفتح الباب وخرج منه غلام ومعه كرسي وخلفه جارية فنصب لها الكرسي وجلست عليه وأخذت العود وأصلحته وغنت عليه بهذه الأبيات:

حتى متى يبقى التهاجر والقلبي ويعود لي ما قد مضى لي أولاً
 من أمس كنا والديار تلمنا في أنسنا ونرى الحواسد عقلا
 غدر الزمان بنا وفرق شملنا من بعد ما ترك المنازل كالخلا
 أتروم مني يا عدولي سلوة وأرى فوادي لا يطبع العدل
 فدع الملام وخلي بصبابتي فالقلب من أنس الأحبة ما خلا
 يا سادة نقضوا العهود وبذلوا لا تحسبوا قلبي بعدكم سلا

فلما سمع الخليفة الثاني إنشاد الجارية صرخ صرخة عظيمة وشق ما عليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الحادية والثلاثين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الخليفة الثاني لما سمع شعر الجارية صرخ صرخة عظيمة وشق ما عليه من ثياب وخر مغشياً عليه فأرادوا أن يرخوا عليه الستارة بحيب العادة فتوقفت حبالها فلاحت من هارون الرشيد التفاتة إليه فنظر إلى بدنه آثار ضرب مقارع فقال هارون الرشيد بعد النظر والتأكيد: يا جعفر والله إنه شاب مليح إلا أنه لص قبيح. فقال جعفر: من أين عرفت ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما رأيت ما على جنبيه من أثر السياط، ثم أسبلوا عليه الستارة وأتوه ببذلة غير التي كانت عليه واستوى جالساً على حالته الأولى مع الندماء فلاحت منه التفاتة فوجد الخليفة وجعفر يتحدثان سراً فقال لهما: ما الخبر يا فتيان؟ فقال جعفر: يا مولانا خيراً، غير أنه لا خفاء عليك إن رفيقي هذا نت التجار وقد سافر جميع الأمصار والأقطار وصحب الملوك والخيار وهو يقول لي: إن الذي حصل من مولانا الخليفة في هذه الليلة إسراف عظيم ولم أر أحداً فعل مثل فعله في سائر الأقاليم، لأنه شق كذا وكذا بذلة كل بذلة بألف دينار وهذا إسراف زائد. فقال الخليفة الثاني: يا هذا إن المال مالي والقماش قماشي وهذا من بعض الإنعام على الخادمو الحواشي فإن كل بذلة شققته الواحد من الندماء الحضار وقد رسمت لهم مع كل بذلة بخمسائة دينار، فقال الوزير جعفر: نعك ما فعلت يا مولانا ثم أنشد هذين البيتين:

بنت المكارم وسط كفك منزلاً وجعلت كالك للأنام مباحاً
 فإذا المكارم أغلقت أبوابها كانت يدك لقفله مفتاحاً

فلما سمع الشاب هذا الشعر من الوزير جعفر رسم له بألف دينار وبدلة ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم الراح، فقال الرشيد: يا جعفر أسأله عن الضرب الذي على جنبه حتى ننظر ما يقول في جوابه. فقال: لا تعجل يا مولاي وترفق بنفسك فإن الصبر أجمل فقال: وحية رأسي وتربة العباس إن لم تسأله لأخمدن منك الأنفاس فعند ذلك التفت الشاب إلى الوزير وقال له: مالك مع رفيقك تتساوران فأخبرني بشأنكما؟ فقال: خير. فقال: سألتك بالله أن تخبرني بخبركما ولا تكتما عني شيئاً من امركما. فقال: يا مولاي إنه أبصر على جنبيك ضرباً وأثر سباط ومقارع فتعجب من ذلك غاية العجب وقال: كيف يضرب الخليفة وقصده أن يعلم ما السبب؟ فلما سمع الشاب ذلك تبسم وقال: اعلموا أن حديثي غريب وأمرني عجب لو كتب بالإبر على أفاق البصر لكان عبرة لمن اعتبر ثم صعد الزفرات وانشد هذه الأبيات:

| | |
|---------------------------------|------------------------------|
| حديثي عجب فاق كل العجائب | وحق الهوى ضاقت على مذاهبي |
| فإن شئتموا أن تسمعوا لي فأنصتوا | ويسكت هذا الجمع من كل جانب |
| واصغوا إلى قولي ففيه إشارة | وإن كلامي صادق غير كاذب |
| فإني قتيل من غرام ولوعة | وقاتلتني فاقت جميع الكواكب |
| لها مقلة كحلاء مثل مهند | وترمي سهاماً من قسي الحواجب |
| وقد حس قلبي أن فيكم أمامنا | خليفة هذا الوقت وابن الأطايب |
| وثانيكم هو المنادي بجعفر | لديه وزير صاحب وابن الأصاحب |
| وثالثكم مسرور سياف نقمة | فإن كان هذا القول ليس بكاذب |
| لقد نلت ما أرجو من المر كله | وجاء سرور القلب من كل جانب |

فلما سمعا منه هذا الكلام حلف له جعفر وروى في يمينه أنهم لم يكونوا المذكورين فضحك الشاب وقال: اعلموا يا سادتي أن لست أمير المؤمنين وغنما سميت نفسي بهذا لأبلغ ما أريد من أولاد المدينة وإنما اسمي محمد علي بن علي الجوهري وكان أبي من الأعيان فمات وخلف لي مالا كثيراً م ذهب وقضة ولؤلؤ ومرجان وياقوت وزبرجد وجواهر وعقارات وحمامات وغيطان وبساتين ودكاكين وطوابين وعبيد وجواري وعلمان فاتفق في بعض الأيام إنني كنت جالساً في دكاني وحولي الخدم والحشم وإذا بجارية قد أقبلت راكبة على بغلة وفي خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار. فلما قربت من نزلت على دكاني وجلست عندي وقالت لي: هل أنت محمد الجوهري؟ فقلت لها: نعم هو أنا مملوكك وعيدك. فقالت: هل عندك جوهر يصلح لي؟ فقلت لها: يا سيدتي الذي عندي أعرضه عليك وأحضره بين يديك فإن أعجبك منه شيء كان بسعد المملوك شيء فيسوء حظي وكان عندي مائة عقد من الجوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها شيء من ذلك وقالت: أريد أحسن ممارأيت وكان عندي عقد صغير اشتراه والدي بمائة ألف دينار ولم يوجد مثله عند أحد من السلاطين الكبار، فقلت لها: يا سيدتي بقي عندي عقد من الفصوص والجواهر التي لا يملك مثلها أحد من الأكابر والأصاغر. فقالت لي: أرني إياه. فلما رأته قالت: هذا مطلوبي وهو الذي طول عمري أتمناه ثم قالت لي: كم ثمنه؟ فقلت لها: ثمنه على والذي مائة ألف دينار فقالت: ولك خمسة آلاف دينار فائدة فقلت: يا سيدتي العقد وصاحبه بين يديك ولا خلاف عندي فقالت: لا بد من الفائدة ولك المنة الزائدة.

ثم قامت من وقتها وركبت البغلة بسرعة وقالت لي: يا سيدي باسم الله تفضل صحبتنا لتأخذ الثمن فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن فقلت الدكان وسرت معها في أمان إلى أن وصلنا الدار فوجدتها داراً عليها آثار السعادة لائحة وبابها مزركش بالذهب والفضة واللازورد مكتوب عليه هذان البيتان:

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| ألا يا دار لا يدخلك حزن | ولا يغدر بصاحبك الزمان |
| فنعم الدار أنت لكل ضيف | إذا ما ضاق بالضيف المكان |

فنزلت الجارية ودخلت الدار وأمرتني بالجلوس على مصطبة الباب إلى أن يأتي الصيرفي، فجلست على باب الدار ساعة وإذا بجارية خرجت إلي وقالت: يا سيدي أدخل الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح فقلت ودخلت الدهلي وجلست على الدكة، فبينما أنا جالس إذا بجارية خرجت إلي وقالت لي: يا سيدي إن سيدتي تقول لك ادخل واجلس على باب الديوان حتى تقبض مالك، فقلت ودخلت البيت وجلست لحظة وإذا بكرسي من الذهب وعليه ستارة من الحرير وإذا بتلك الستارة قد رفعت فيان من تحتها تلك الجارية التي اترت مني ذلك العقد وقد أسفرت عن وجه كأنه دارة القمر والعقد في عنقها فطاش عقلي واندش لبي من تلك الجارية لفرط حسنها

وجمالها. فلما رأنتني قامت من فوق الكرسي وسعت نحوي وقالت لي: يا نور عيني هل كان من كان مليح مثلك ما يرثي لمحبيبته، فقلت: يا سيدتي الحسن كله فيك وهو من بعض معانيك، فقلت: يا جوهرى، اعلم أني أحبك وما صدقت أني أجيء بك عندي، ثم إنها مالت علي فقبلتها وقبلتني وإلى جهتها جذبتني وعلى صدرها رمتني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثانية والثلاثين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجوهرى قال ثم إنها مالت علي فقبلتها وقبلتني وإلى جهتها جذبتني وعلى صدرها رمتني وعلمت من حالي أنني أريد وصالها فقلت: يا سيدى أتريد أن تجتمع بي في الحرام والله لا كان من يفعل مثل هذه الأثام ويرضى بقبح الكلام فإني بكر عذراء ما دنا مني أحد ولست مجهولة في البلد، أتعلم من أنا؟ فقلت: لا والله يا سيدتي فقلت أنا السيدة دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي وأخي جعفر وزير الخليفة. فلما سمعت ذلك منها أحجمت بخاطري عنها وقلت لها: يا سيدتي ملي ذنب في التهجم عليك أنت من أطمعتني في وصالك بالوصول إليك، فقلت: لا بأس عليك ولا بد من بلوغك المراد بما يرضي الله فإن أمرى بيدي والقاضي ولي عقدي والقصد أن أكون لك أهلاً وتكون لي بعلاً ثم إنها دعت بالقاضي والشهود وبذلت المجهود، فلما حضروا قالت لهم: محمد عيلي بن علي الجوهرى قد طلب زواجي ودفع لي هذا العقد في مهري وأنا قبلت ورضيت فكتبوا كتابي عليها ودخلت بها وأحضرت آلات الراح ودارت الأقداح بأحسن نظام وأتم أحكام ولما شعشت الخمرة في رؤوسنا، أمرت جارية عوادة أن تغني فأخذت العود وأطربت النغمات وأنشدت هذه الأبيات:

| | |
|--------------------------------|---------------------------------|
| فبتاً لقلب لا يبيت به معزى | بدا فاراني الطبي والغصن والبدرا |
| بعارضه فاستؤنفت فتنة أخرى | مليح أراد الله إطفاء فتنة |
| حديثاً كأنى لا أحب له ذكرا | أغالط عذابى إذا ذكروا له |
| بسمعي ولكنى أنوب به فكرا | وأصغي إذا فاهو بغير حديثه |
| الحسن ولكن وجهه الآية الكبرا | نبي جمال كل ما فيه معجز |
| تراقب من لألأ غرته الفجرا | أقام بلال الحال في صحن خده |
| وما كنت أرضى بعد إيماني الكفرا | يريد سلوى العادلون جباله |

فأطربت الجارية بما أبدته من نغمات الوتار ورقيق الأشعار، ولم تزل الجوارى تغني جارية بعد جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوار ثم إنها صرفت الجوارى وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه فرش من سائر الألوان ونزعت ما عليهما من الثياب وخلوت بها خلوة الأحباب فوجدتها درة لم تنقب مرة ومهرة لم تركب ففرحت بها، ولم أر في عمري ليلة أطيب من تلك الليلة، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثالثة والثلاثين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن محمد بن علي الجوهرى قال: لما دخلت بالسيدة دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي رأيتها درة لم تنقب ومهرة لم تركب فأنشدت هذين البيتين:

| | |
|-----------------------------|-------------------------|
| طوقته طوق الحمام بساعدي | وجعلت كفي للثام مباحا |
| هذا هو الفوز العظيم ولم نزل | متعانقين فلا نريد براحا |

ثم أقمت عندها شهراً كاملاً وقد تركت الدكان والأهل والأوطان فقالت لي يوماً: يا نور العين يا سيدى محمد إنى قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام فاستقر أنت على هذا السرير ولا تنتقل من مكانك إلى أن أراجع إليك وحلفتني على ذلك فقلت لها سمعاً وطاعة ثم إنها حلفتني أنني لا أنتقل من موضعي وأخذتجوارىها وذهبت إلى الحمام فو الله يا أخوانى ما لحقت أن تصل إلى رأس الزقاق إلا والباب قد فتح ودخلت منه عجوز وقالت يا سيدى محمد إن السيدة زبيدة تدعوك فإنها سمعت بأدبك وظرفك وحسن غنائك ن فقلت لها: والله ما أقوم من مكاني حتى تأتي السيدة دنيا.

فقلت العجوز يا سيدى لا تجعل السيدة زبيدة تغضب عليك وتبقى عدوتك فقم كلمها وارجع إلى مكانك ففقت من وقتي وتوجهت إليها والعجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى السيدة زبيدة، فلما وصلت إليها قالت لي: يا نور العين هل أنت مشوق السيدة دنيا فقلت: أنا مملوكك وعبدك، فقلت: صدق الذي وصفك بالحسن والجمال والأدب والكمال فإنك فوق الوصف والمقال ولكن عن لي حتى أسمعك فقلت: سمعاً وطاعة، فأنتني بعود فغنيبت عليه بهذه الأبيات:

قلب المحب مع الأحباب مغلوب
ما في الرجال وقد زمت ركانبهم
أستودع الله في أطنا بكم قمرأ
يرضى ويغضب ما أحلى تدلله
وجسمه بيد الأسقام منهوب
إلا محب له في الركب محبوب
يهواه قلبي وعن عيني محجوب
وكل ما يفعله المحبوب محبوب

فلما فرغت من الغناء قالت لي: أصح الله بدنك وطيب أنفاسك فلقد كملت في الحسن والأدب والغناء فقم وامض إلى مكانك قبل أن تجيء السيدة دنيا فلا تجدك فتغضب عليك فقبلت الأرض بين يديها وخرجت من عندها وجئت إلى السرير فوجدتها قد جاءت من الحمام وهي نائمة على السرير فقعدت عند رجليها وكبستها ففتحت عينيها فرأنتي تحت رجليها، فرستني ورممتني من فوق السرير وقالت لي: يا خائن خنت اليمين وحنثت فيه ووعدتني أنك لا تنتقل من مكانك وأخلفت الوعد وذهبت إلى السيدة زبيدة والله لولا خوفاً من الفضيحة لهدمت قصرها على رأسها، فتقدم العبد وشرط من ذيله رقعة وعصب عيني وأراد أن يضرب عنقي وأدرك شهرزاد الصباح فسكنت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الرابعة والثلاثين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن محمد الجواهري قال: فتقدم العبد وشرط من ذيله رقعة وعصب عيني وأراد أن يضرب عنقي فقامت إليها الجواهري الكبار والصغار وقلن لها: يا سيدتنا ليس هذا أول من أخطأ وهو لا يعرف خلقك وما فعل ذنباً يوجب القتل. فقالت: والله لا بد أن أعمل فيه أثراً. ثم أمرت أن يضربوني فضربوني على أضلاعي وهذا الذي رأيتموه أثر ذلك الضرب وبعد ذلك أمرت بإخراجي فأخرجوني وأبعدوني عن القصر ورموني فحملت نفسي ومشيت قليلاً حتى وصلت إلى منزلي وأحضرت جراحاً وأريته الضرب فإطفني وسعى في مداواتي.

فلما شفيت ودخلت الحمام وزالت عني الأوجاع والأسقام جئت إلى الدكان وأخذت جميع ما فيه وبعته وجمعت ثمنه واشتريت لي أربعمائة مملوك فما جمعهم أحد من الملوك وصار يركب معي منهم في كل يوم مائتان وعملت هذا الزورق وصرفت عليه خمسة آلاف دينار من الذهب وسميت نفسي بالخليفة ورتبت من معي من الخدم واحد في وظيفة واحد من أتباع الخليفة وهيأته بهيئته وناديت كل من يتفرج في الدجلة ضربت عنقه بلا مهلة ولي على هذه الحال سنة كاملة وأنا لم أسمع لها خبراً ولم أفق لها على أثر ثم إنه بكى وأفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات:

والله ما كنت طول الدهر ناسيها
وإله ما كنت طول الدهر ناسيها
كأنها البدر في تكوين خلقتها
سبحان خالقها سبحان باريها
قد صيرتني حزينا ساهراً دنفاً
والقلب قد حار مني في معانيها

فلما سمع هارون الرشيد كلامه وعرف وجده ولوعته وغرامه تدله ولهاً وتخيراً عجباً وقال: سبحان الله الذي جعل لكل شيء سبباً ثم إنهم استأذنوا الشاب في الإنصراف فأذن لهم وأضمر له الرشيد على الإنصاف وأن يتحفه غاية الإتخاف.

ثم انصرفوا من عنده سائرين وإلى محل الخلافة متوجهين فلما استقر بهم الجلوس وغيروا ما عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب المواقب ووقف بين أيديهم مسرور سيفاً النقمة قال الخليفة لجعفر: يا وزير، علي بالشاب الذي كنا عنده في الليلة الماضية فقال: سمعاً وطاعة ثم توجه إليه وسلم عليه وقال له: أجب أمير المؤمنين الخليفة هارون الرشيد فسار معه إلى القصر، وهو من الترسيم عليه في حضر فلما دخل على الخليفة قبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز والإقبال وبلوغ الآمال ودوام النعم وإزالة البؤس والنقم، وقد أحسن ما به تكلم حيث قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين وحامي حومة الدين ثم أنشد هذين البيتين:

لا زال باب كعبة مقصودة
حتى يناديك في البلاد بأسرها
وترابها فوق الجباه رسوم
هذا المقام وأنت إبراهيم

فتبسم الخليفة في وجهه ورد عليه السلام والتفت إليه بعين الإكرام وقربه لديه وأجلسه بين يديه وقال له: يا محمد علي أريد منك أن تحدثني بما وقع لك في هذه الليلة فإنه من العجائب وبديع الغرائب فقال الشاب: العفو يا

أمير المؤمنين أظني منديل الأمان ليسكن روعي ويطمئن قلبي فقال له الخليفة: عليك الأمان من الخوف والأحزان، فشرع الشاب يحدثه بالذي حصل له من أوله إلى آخره فعلم أن الصبي عاشق وللمعشوق مفارق فقال له: أتحب أن أردّها عليك؟ قال: هذا من فضل أمير المؤمنين، ثم أنشد هذين البيتين:

لكنهن كفاتح الأرزاق
لكنهن قلائد أعناق

ألثم أنامله فلسن أناملأ
وأشكر صنائعه فسن صنائعأ

فعند ذلك التفت الخليفة إلى الوزير وقال له: يا جعفر أحضر لي أختك دنيا بنت الوزير يحيى بن خالد، فقال: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين، ثم أحضرها في الوقت والساعة فلما تمثلت بين يديه قال لها الخليفة: أتعرفين من هذا؟ قالت: يا أمير المؤمنين من أين للنساء معرفة الرجال؟ فتبسم الخليفة وقال لها: يا دنيا هذا حبيبك محمد بن علي الجوهري وقد عرفنا الحلا وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها وفهمنا ظاهرها والأمر لا يخفى وعن كان مستوراً. فقالت: يا أمير المؤمنين كان ذلك في الكتاب مسطوراً وأنا أستغفر الله العظيم مما جرى مني وأسألك من فضلك العفو عني. فضحك الخليفة هارون الرشيد وأحضر القاضي والشهود وجدد عقدها على زوجها محمد بن علي الجوهري وحصل لها وله سعد السعود وإكمام الحسود وجعله من جملة ندمائه واستمروا في سرور ولذة وحبور إلى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات.